الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

" المدى " في عيدها: شراع للحرية، ومجداف للديمقراطية

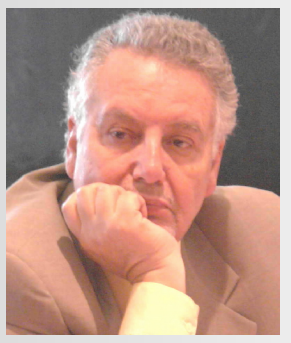

شاكر النابلسي
كاتب اردني - اميركا

-١-

خمس سنوات مرت على صدور جريدة "المدى".
ف "المدى" صدرت لأول مرة منذ خمس سنوات في الخامس من آب أغسطس ,٢٠٠٣ ولهذا التوقيت في الصدور معنى كبير.
لقد كانت "المدى" بأفكارها، وطروحاتها، وأمانيها في رؤوس وصدور كل الأحرار، الذين كانوا يبحثون في عراق العهد المباد عن صحيفة يتسع صدرها لكل الحرية، ولكل الديمقراطية والحداثة العراقية، فلا يجدون.
وعندما انطلقت "المدى" كان ذلك بشارة الحرية العراقية.
ففي العام الذي تحرر فيه العراق سياسياً وثقافياً وإعلامياً وإنسانياً، صدرت "المدى" وفي ذلك من الإشارات الشيء الكثير.

-٢-

كانت "المدى" عام ٢٠٠٣ ، فاتحة للإعلام العربي الحر. فلم تتمتع صحيفة عربية بما كانت تتمتع به "المدى" من حرية في قول ونشر ما تشاء، من أجل أن تُثبت أن الحرية الإعلامية في العراق أصبحت حقيقة واقعة، وليست مجرد شعارات، أو خطب سياسية، أو بيانات رسمية.
فقالت "المدى" من كان محرماً قوله.
ونشرت "المدى" ما كان يُعاقب بالموت من كان ينشره.
وفتحت "المدى" صدرها لكتّاب كانوا من المرفوضين والمنبوذين .
وفضحت "المدى" النخب العربية السياسية والثقافية، التي كانت تتعاطى مع نظام الطاغية السابق، فيما عرف بـ "فضيحة كوبونات النفط"، التي وصل دويها إلى جميع أرجاء الإعلام العالمي في ذلك الوقت.
وتبنّت "المدى" قضايا عراقية وعربية لم تكن وسيلة إعلامية غيرها تجرؤ على الخوض فيها، أو حتى التلفظ بها.

-٣-

أهمية "المدى" تكمن في أنها النافذة الواسعة للثقافة العراقية والعربية.
فعلى صفحاتها قرأنا عدة أعمال عربية وعراقية جديدة في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع. وكانت لـ "المدى" ريادتها في إقامة "مهرجانات المدى الثقافية" الخمسة الأخيرة، والتي جمعت صفوة المثقفين العراقيين والعرب في الداخل والخارج. وقدمت خلالها وجه الثقافة العراقية المشرق في جميع النواحي.
وقامت بهذه المهرجانات الثقافية مقام وزارة الثقافة العراقية.
واستطاعت بذلك أن تكسر أسطورة ما يقال يومياً عن العراق بأنه غير آمن، ولا يستطيع أن يحتضن مثل هذه النشاطات الثقافية الكبيرة. وكان مثل هذه النشاطات الثقافية تحدياً كبيراً للإرهاب.
كذلك درجت "المدى" يومياً على تقديم الفكر الغربي الحديث السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي من خلال عرضها شبه اليومي لأحدث الكتب الصادرة في الغرب بهذا الخصوص، لكي تمكن القارئ من الإطلاع على أحدث الإصدارات الغربية بهذا الخصوص.

-٤-

لم تكن "المدى" لمذهب سياسي معين، ولا لتيار ثقافي واحد. لم تكن تتعصب أو تتحزب لأحد. كانت صحيفة مفتوحة للجميع. ورغم أن فخري كريم هو رئيس مجلس إدارتها، وهو رئيس تحريرها، إلا أن أصابعه وأنفاسه وأفكاره لا تظهر في "المدى".
ف "المدى" لا تسيطر عليها أية أيديولوجية غير إيديولوجية الحرية. ولا يمتلكها حزب، غير حزب واحد، هو جبهة الحرية والديمقراطية، التي ننشدها في الإعلام العربي منذ زمن طويل، وتتجلى الآن في "المدى" بصورة واضحة. وهو ما عبر عنه الرئيس جلال طالباني في تهنئته بعيد "المدى" الرابع، حين قال:
"دأبت هذه الصحيفة، ومنذ صدور عددها الأول على نقل الوقائع بحيادية تامة ومهنية عالية. لقد استطاعت - وخلال هذه الفترة القصيرة على تأسيسها- إثبات كونها منبراً للكلمة الحرة والصادقة. وأنها تعكس تطلعات بجميع العراقيين، بكافة قومياتهم ومذاهبهم، في ترسيخ مبدأ الوحدة الوطنية، بين أطياف الشعب العراقي، والوقوف ضد المخططات الرامية إلى زعزعة الثقة، وزرع الفتن، بين أبناء الشعب الواحد."

فرئيس تحرير "المدى" هم محرروها. وهم من جميع الأعراق والمذاهب. وشرط فخري كريم الوحيد عليهم، هو ألا يتعصبوا لما يحملون، ولما يعتقدون، ولما يفكرون فيه من مذاهب وعقائد. وأن يكونوا جميعاً من أجل جميع القراء.
من أجل حرية الإنسان وكرامته.
ولذا، استطاعت "المدى" خلال سنواتها الخمس الأخيرة، من أن تكون الجريدة العراقية الأولى في العراق. والجريدة ذات الشهادة العراقية الصادقة في العالم العربي، بحيث أن معظم التقارير، والأبحاث، والدراسات، عن يوميات العراق، تُقتطف من "المدى"، وتستشهد بما تقوله، وبما تنشره.
فهي المنبع، وهي المرجع العراقي الموثوق به.

-٥-

يقول الكاتب المسرحي الأمريكي آرثر ميلر:
"إن الصحيفة الناجحة هي أمة تتحدث عن نفسها."
ولقد كانت "المدى" على هذا النحو. فقد كانت وكأنها الشعب العراقي يتحدث عن نفسه.
وقد شاهدت هذا في "مهرجان المدى الثقافي" الذي أُقيم في إربيل في أيار مايو الماضي من هذا العام. وكيف أن "المدى" جمعت فيه معظم تكوينات ومثقفي الشعب العراقي، والشعب العربي، ممن كان شجاعاً وجريئاً ومتحدياً للإرهاب، ولبى دعوة "المدى"، وجاء، وحضر هذا المهرجان، الذي قدم لنا كل نشاطات عقل، وفن، وإبداع العراق.
إن مقولة الديكتاتور نابليون بونابرت، من أن "الصحافة يجب أن تقتصر على الإعلانات فقط"، هو قول ومفهوم حاكم ديكتاتور للصحافة.
ولقد كان طغاة العرب يرددون نفس القول. وكان كذلك طاغية العراق الأسبق يردد نفس القول. وهو الذي طبّقه في العراق أحسن، وأكمل، وأوفى تطبيق، حين حوّل الصحافة العراقية إلى نشرة إعلانية سياسية، تُسبح بحمده صبحاً ومساءً، وتجعل منه صنم هبل العراق الأكبر المعبود.
ولكن ما أسرع ما تحطم هذا الصنم.
وما أسرع ما اختفت صحافة الإعلانات السياسية، لتظهر بدلاً منها صحافة، شراعها الحرية، ومجدافها الديمقراطية، ونهرها الناس كافة.

النحيب على مدينة أور

فؤاد يوسف قزانجي
استاذ في التاريخ والمعلومات

عندما جاء السومريون الى أرض الرافدين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد واستقروا في جنوب العراق في ارض شنعار أي في جنة عدن كما يقول الكتاب المقدس، حيث يتفرع نهرا دجلة والفرات وجداولهما العديدة، إضافة الى ما يخلفانه جراء فيضانهما في اهوار او مستنقعات جنوب العراق، حيث تزدهر حولها الزراعة وتنمو في ربوعها الأشجار والنباتات. وقد عمل السومريون، ذوو الرؤوس السود أي ذوي الشعور السود بدأب ونشاط فأقاموا المدن ونظموها لأول مرة، وبنوا المعابد وانشأوا المدارس والمكتبات، بعد ان ابدعوا في اختراع الكتابة المسمارية واللغة السومرية التي سرعان ما انتشرت في جميع حواضر الشرق الأدنى القديم والتي أوصلتهم الى أسباب الحضارة والمعرفة. وقد أنتج السومريون ادباً رائعاً وشعراً جميلاً امتاز بالعفوية والرقة والتعبير الصادق. وقد دونوا هذا الأدب الإنساني على الرقم الطينية التي صنعوها من الطين النظيف المتوفر على شواطئ الأنهار وفروعها الوفيرة.
يذكر صاموئيل كريمر، ان أول حاكم سومري قدر لأخباره ان تجد سبيلها الى التدوين ووصلتنا، كان الملك (ايتانا) أمير لكش في مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، وخلف لنا بعد ذلك أسطورة ايتانا والنسر. كما يذكر ملكاً سومرياً آخر وهو كلكامش صاحب الأسطورة البديعة التي عرفت باسمه، وكانت حياته وكفاحه من أجل مدينته اوروك، قد سجلت في قصيدة اخرى مطولة تصور صراع كلكامش مع ملك كيش (أكا) Aggaالذي انتهى بانسحاب جيش ملك كيش عن ارض أوروك وكان ذلك قد حدث في عام (٢٧٠٠ ق.م) تقريباً. وأعطت ألينا حضارة سومر ايضا قصة طوفان نوح (زيو سودرا) وقصائد اخرى بعضها سجلت قديماً في زمانها والبعض الآخر دون بعد قرن من الزمن تقريباً وهذا يذكرنا بالشعر الجاهلي الذي دون معظمه على قراطيس بعد أكثر من مئة سنة على نظمه وإلقائه في سوق عكاظ او بلاط الملك نعمان المنذر بالحيرة. ومن حسن الحظ ان التراث السومري وجد معظمه بفضل مدينة سيبار التي ضمت مكتبة ضخمة لا تقل عن مئتي ألف رقيم، وجد فيها ما يقارب من مئة وثلاثين الف رقيم (محفوظة معظمها في متحف بنسلفينيا). اما مدينة أور فهي من أقدم المدن الرافدينية استوطنها السومريون في حدود (٣٥٠٠ - ١٩٠٠ ق. م تقريباً) وتعني أور مدينة النور، كما ذكر في العهد القديم (التوراة) باسم أور الكلدانية باعتبارها موطن أبي الأنبياء ابراهام (ابراهيم). كانت أور مجاورة لنهر الفرات آنذاك، وعرفت بمرفأها على نهر الفرات الذي كان يصب مباشرة في البحر الأسفل (الخليج العربي). وقد شهدت مدينة أور تنامي المعرفة الإنسانية وتركت لنا أدبا خصباً وشعراً رقيقاً ملوناً، ولعل أروع القصائد هي قصيدة (مرثية مدينة أور) او بالأحرى (النحيب على مدينة أور) كما اسماها شاعرها، والتي تعكس مشاعر الفجيعة والحزن العميق الذي عبر عنه الشاعر السومري، مستنكرا خراب عاصمة بلاده ومناجياً سيدة المعبد في أور التي كانت بمثابة ملكة البلاد وهي إلهة المدينة (نينكال) زوجة إله القمر (نانا) اللذين عبدا في أور، حيث يناديها الشاعر بالملكة، ويعتبرها رمزاً لفجيعة المدينة، لذلك نجد انه يتوحد وإياها، ساكباً حزنه وعبراته فيها، ولهول ما أصاب مدينته قلب البلاد فهو يشكك في قدرتها على تحمل هول ما جرى من كارثة حلت بأهل أور حيث تقطعت بهم الطرق، وأهملت رعاية الأطفال وتربية الحيوانات وأقفرت البيوت، لذلك يناجيها متسائلا كيف تقدر على البقاء وسط هذا الخراب، بعد ان استبيحت أور وضربت معابدها من قبل الغزاة العيلاميين. اذ ان المعبد الرئيسي في المدينة كان يمثل المركز الروحي لأهل المدينة، وكان مجتمع المدينة، العنصر الإنساني الفاعل في حياة المدينة قد غمره الأسى من جراء تدمير أور الجميلة واستباحة معبدها الرئيسي المسمى (أي – كيش - نينكال). ومرثية أور تذكرنا بمراثي النبي ارميا الشهيرة في التوراة حينما كان يبكي ويستذكر خراب أورشليم المدينة المقدسة، كما تذكرنا بالخراب الذي حل ببغداد الحبيبة بعد سقوطها. لندع الشاعر العراقي من أور يرثي مدينته العظيمة ومعبدها المقدس، وهو يخاطب آلهته والتي دعاها بالملكة وذلك قبل اكثر من أربعة آلاف سنة:
أيتها الملكة، كيف ابقى عليك قلبك، كيف تقدرين على البقاء حية؟!
" نينكال " كيف أبقى عليك قلبك، كيف تقدرين على البقاء حية؟!
أيتها المرأة العادلة التي هدمت مدينتها، كيف تقدرين الآن على البقاء؟!
ايا " نينكال " التي هلكت بلادها، كيف أبقى قلبك عليك؟!
وبعد ان دمرت مدينتك ، كيف تقدرين الآن على البقاء؟!
وبعد ان دمر بيتك، كيف أبقى على قلبك؟!
ان مدينتك أصبحت مدينة غريبة، فكيف تقدرين على البقاء؟!
وأصبح بيتك بيتاً للدموع، فكيف أبقى عليك قلبك ؟
ان مدينتك التي تحولت الى خرائب - انت لم تعودي سيدتها.
وبيتك بيت العدل الذي سلم للمعول، لا تسكنين اليوم فيه.
وشعبك الذي اقتيد للذبح - انت لم تعودي ملكة له.
ودموعك صارت دموعاً غريبة وارضك لا تنتحب،
بلا " دموع التضوع " تستوطن هي بلاداً أجنبية،
ان ارضك كأرض تجزأت.. أُغلق فمها بإحكام،
وحولت مدينتك الى أنقاض، فكيف تقدرين على البقاء ؟
وترك بيتك مقفراً، فكيف أبقى عليك قلبك ؟
ويمضي الشاعر قائلا:
ذوو الرؤوس السود لا يستحمون من اجل عيدك،
وكما تتوسخ خيوط الكتان، قدّر لهم الوسخ فلقد تغير مظهرهم،
ان أغنيتك قد استحالت الى بكاء.....،
وتحولت الى (تيكي) وهي موسيقاك الى نحيب..،
وثورك لن يأتي الى الحظيرة ولن يحضر لك سمنه،
وشاتك لا تبقى في حظيرتها، ولا يقدم حليبها لك.
ومن اعتاد على جلب الحليب لك، لم يعد يجلب لك من زريبة الأغنام...،
وصياد السمك الذي اعتاد على جلب السمك لك قد حلت به مصيبة،
وصيادوا الطيور الذين اعتادوا على جلب الطيور لك، قد أسروا من قبل ال...،
ولا تستطيعين العيش الآن إلا بشق الأنفس.
ان نهرك الذي كان صالحاً لسفن (الماكورا) - الآن في وسطه سينمو نبات القصب،
وعلى طريقك الذي أعد للعربات ستنمو عليه أشواك الجبل.
ايا ملكتي، مدينتك تنتحب بين يديك كأنك أم لها،
و(أور)كطفل في شارع خرب، تبحث عنك،
البيت، كرجل فقد كل شيء، يمد يديه إليك.

المصدر:
كريمر، صاموئيل نوح. السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم ترجمة فيصل الوائلي. الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٤ ص١٨٩ - ١٩٦

عبثية البحث عن حل لقضية عادلة

د.عزمي بشارة
باحث - باريس

لم يكلف أحد من المعنيين نفسه عناء إبلاغ الناس متى توفيت خارطة الطريق، ولماذا لم يعلن عن وفاتها ولا حتى في صفحات النعي والتعازي في صحفنا، خاصة وأنها تبوأت مكانة دائمة على الصفحات الأولى. طوال سنتين أو ثلاث احتلت خارطة الطريق مكان "الشرعية الدولية" واستبدلت "تنفيذ القرارات الدولية" في الخطاب السياسي العربي المعتدل بشكل خاص. وزاد من التركيز عليها حصراً مصلحة إسرائيلية وتواطؤ أميركي لتهميش مبادرة السلام العربية الأصلية. ثم أُذن بالعودة إليها لإنقاذ التحرك الدبلوماسي و"عملية السلام" بعد فشل العدوان الإسرائيلي على لبنان.
كان الانشغال بخارطة الطريق استحواذياً إلى درجة انه حرم على السياسي العربي أن يدلي بتصريح دون ذكرها، مثلاً لأزمة، أو يصرح دون إبداء الالتزام لها مع تحيتها دون حفظ الألقاب. وكنا نسمع يوميا أخبار الخارطة وتبدل أحوالها الصحية ومزاجها ودرجة حرارتها، ثم وبعد أن صدقنا أهمية الموضوع انتقلت اللهجة إلى مطالبة الولايات المتحدة بتنفيذها، مع أن الجميع عرف أنها لا تحتوي على تصور لـ"حل دائم" للقضية الفلسطينية. وهي انتقلت بدورها إلى مطالبة الفلسطينيين بتنفيذ حصتهم منها. هم طالبوا بالتزامن والتوازي في تنفيذ الالتزامات، أما إسرائيل فردت بضرورة مكافحة الإرهاب أولاً، رغم أن الجميع كان يعلم أن إسرائيل غير موافقة عمليا على خارطة الطريق. ومع ذلك تابع جميع أطراف اللعبة اللعب كأنهم لا يعلمون... ثم، وكأنها مؤامرة منسقة سلفا صمت الجميع فجأة. وربما اختفت الخارطة أو هربت مع عشيق من طائفة أخرى أو غيرها من الملابسات التي يتحرج الناس من ذكرها في هذه النواحي. وربما توفيت بمرض من النوع الذي يتجنب الناس النطق به في هذه البلاد تطيراً أو حرجاً. لا أحد يعلم. المهم اننا استيقظنا صباح يوم لا أحد يذكره، ولا كاتب هذا المقال، وإذ بقارئ نشرة الصباح لا يذكرها وعناوين الجريدة الصباحية تتصرف وكأنها لم توجد في يوم من الأيام.
ولو أعملنا الفكر قليلا فيما يتجنبه الناس لوجدنا أن هذا هو حال العرب منذ أن قرروا أن يبحثوا عن "حل" لقضية فلسطين كأنها معضلة تبحث عن حل بنبرة معذبة: "أريد حلاً". ومسعى البحث عن "حل" يعني إقناع إسرائيل بتغيير موقفها، وهذا لا يعني إجبارها أو محاربتها أو التضييق عليها أو استنزافها أو غيره، بل التأثير عليها بالذات بعد أن اقتنع من اقتنع بفشل الوسائل السابقة. ولكي تغير موقفها ويكون التأثير عليها باتجاه "الحل"، لا بد من افتراض أن تسعين بالمئة من أوراق هذه اللعبة بيد أميركا. ولا بد أيضا من الافتراض أن أميركا تريد "حلاً" لقضية فلسطين.
وبعد ما لا يحصى من المشاورات والوفود والمؤتمرات والانتفاضات والحروب وغيره انتهت الولايات المتحدة إلى قناعة مفادها أن "الحل" غير ممكن دون دولة فلسطينية. ولكنها وصلت إلى هذه الاستنتاج بتواز مع وصول إسرائيل إلى نفس القناعة. ومفادها تخليص اسرائيل من العرب كعبء ديمغرافي. وإسرائيل طبعا تعين وتحدد المعادلة بحيث تعني التخلص من اكبر عدد من العرب على أصغر مساحة ممكنة من الأرض يتم الانسحاب منها.
والعرب طبعا يرفضون مثل هذا "الحل"، ومن يقبل منهم بمثل هذا "الحل" لا يستطيع فرضه. خاصة أن هذا البعض يقارب ما يدعي أنه "حاجة إلى حل" من منطلق: "أننا هزمنا وكل ما تقدمه إسرائيل لنا كثير علينا"، وأنه لا حاجة للعرب ولا بد من الحديث مباشرة مع أميركا وإسرائيل. وطبعا يردف هذين الادعاءين بالسؤال المحرج ضد من يعارض: "وما هو بديلك؟" وبرأينا المتواضع لا يوجد "حل" لقضية فلسطين، بمعنى التوصل إلى حل بعد البحث عنه ثم العثور عليه، فلا يوجد حل ضائع ينتظر من يجده. والمسألة ليست عبقرية في التخريجات على الورق بحيث يخرج عدم الاتفاق بصورة اتفاق. وليست المسألة حلاً لمعضلة رياضية. هذه قضية تحرر من الاحتلال. وهي لا تحل، بل تنتهي مع زوال الاحتلال، ولا تنتهي مع بقاء أي نوع من الاحتلال أو الاستيطان. أو هي قضية أبرتهايد وفصل عنصري، وهذه لا تحل، بل تعالج بمساواة كاملة لا يحصى بعدها الناس ديموغرافيا. ولا بد من اختيار استراتيجية النضال من اجل التحرر. أما في سياق موازين القوى الحالية فلا ينتج سوى تخريجات للمعتدلين، أو مكرمات لهم، أو حلول لمشاكل إسرائيل المترتبة عن الاحتلال.
على كل حال لم يسعفنا تساؤلنا عن الاختفاء غير المعلن لخريطة الطريق. ولم يمهلنا جورج بوش طويلا، فإذا بوسائل الإعلام العربية تزف لنا بشرى تعيين بلير مبعوثا للرباعية. والرباعية هي أيضا مثل مبعوثها مخلوق غريب عجيب بأربعة أطراف تشمل الأمم المتحدة كعضو واحد بين دولتين ومجموعة دولية. وهي من تخريجات الهيمنة الأميركية، ولا بد أن هذا الطاقم أيضا سوف يختفي يوماً. وقد بدأ الناس فور سماع نبأ تعيين بلير بالتساؤل جديا عما يعنيه تعيينه، فهو بالتأكيد ليس موفدا عادياً. وهو ليس زيني، ولا حتى مبعوث السلام القديم روجرز. إنه تومي بلير. و"النعم والست نعام!!" يقول الفلاحون في بلادنا عندما يسمعون بعدم اكتراث باد اسم شخص لأول مرة، أو عندما يلفظ اسمه فلا يأبه أحد. و"ماذا يعني توني بلير؟". لا شيء. موفد آخر. هو فعلا أكثر أهمية، "استقبل" وهو شاب مليء بالطاقة والحيوية، وصديقه جورج بوش يجد له عملاً يلبي طموحاته ويملأ أوقات فراغه بشكل بناء. وسوف يكون لدينا موفد أكثر أهمية من صلاحياته. وماذا بعد؟ وماذا يريد بلير؟ يبدو أن السؤال عن الهدف أخلى مكانه في نواحينا للعملية، الصيرورة، الأداء. العملية كل شيء، أما الهدف فلا شيء. وسوف يعلن بلير عن إحباطه قريبا ويغادر دون خبر، أو سوف يختص بتوجيه النصائح للفلسطينيين في كيفية التصرف لكسب ود الإسرائيليين. وهنا سوف ينجح طبعا. كما سوف يساعد المعتدلين من الفلسطينيين في الحصول على دعم دولي ومبادرات حسن نية جزاء لهم على اعتدالهم. وسوف يساهم في تعزيز القدرة الفلسطينية على إدارة دولة ومفاوضات كما تختص بذلك جمعيات غير حكومية عديدة تساهم في تنشئة جيل من الفلسطينيين مؤهل لقبول "الحل" والتعامل معه.
ثم وبعد أقل من أسبوع عاجلنا بوش بفكرة المؤتمر الدولي للقضية الفلسطينية. مؤتمر، أين؟ لماذا؟ متى؟ ما الهدف؟ لا احد يدري، فكرة صماء تماما. لا أحد يعرف معناها وسر توقيتها. فلم يسمع عن تغير في الموقف الأميركي يترتب عليه تفاؤل من عقد مؤتمر لتطبيق فكرة ما. المؤتمر هو فكرة أخرى لدعم "المعتدلين" العرب ولعزل "المتطرفين". ولا بد أن يدعم من وصل إلى قناعة يتفاخر بها مفادها نعم للحوار مع إسرائيل ولا للحوار مع شعبه... من وصل إلى قناعة من هذا النوع ويجاهر بها لا بد من أن يدعم. ولكن ماذا يهم الهدف؟ الهدف لا شيء، المهم العملية: من يحضر المؤتمر وأين يعقد ومتى؟...هذه هي الأمور المهمة.
عين بلير ثم أطلقت إلى فضاء الفضائيات فكرة المؤتمر الدولي. وحتى من يتمتع بموهبة التعليق بجمل جاهزة على أي شيء لم يجد ما يعلق عليه في هذه الحالة. ولو أطلق بوش فكرة ثالثة لأقسمت بالله العظيم أنها الحرب. لا بد انه يحضر فعلاً لحرب.
فمنذ فترة تحولت قضية فلسطين برعاية بوش وأفكار بلير إلى دائرة علاقات عامة لإدارة الولايات المتحدة أزماتها الأخرى. كان من المفترض أن تكون قضية فلسطين الجوزة الأصلب المستعصية على الكسر، والتي تستخدم ضدها القضايا الأخرى في علاقات عامة. فباتت بفضل بعض المبادرين في "صناعة القضية" و"عملية السلام" و"العملية" دائرة علاقات عامة تستعرض من خلالها الولايات المتحدة أنها تعير قضية العرب الأولى اهتمامها، وأنها لا تخاطب العرب بحاملات الطائرات والبوارج فحسب وأن لديها "حلا" لقضية فلسطين حالما تفرغ من حل دولة العراق، وحالما تنتهي من تحضير حصار إيران تمهيداً لصفقة أو لحرب. وتجد من يتجاوب معها بالإشادة بالجدية الأميركية هذه المرة، وبتمنية النفس أن الضغط على إسرائيل قادم "خاصة وأنها فقدت أهميتها الإستراتيجية"، وفي أسوأ الحالات علينا انتظار الانتخابات الأميركية المقبلة.
والظرف الفلسطيني مؤات طبعا لخطاب أميركي من هذا النوع، فمن يرفض الحوار مع شعبه ويرى "حلاً" في آخر النفق، وضوءاً في آخر النفق الطويل الذي يسمى الـ"عملية"، ونفقاً في آخر الضوء، يتم جره من جديد إلى وعود من نوع إعلان مبادئ. بعد اتفاق أوسلو، بعد مرور أكثر من عقد يجري مرة أخرى الحديث عن إعلان مبادئ. فعلاً أمر لا يصدق، ولكن هذا ما نسمع. أما على الأرض، فإن الشرط الذي يجب أن يحترمه "المعتدلون" هو أولاً، عدم الحديث مع حركة حماس، وثانيا أن "يكافحوا الإرهاب" بجدية. سوف يصاغ إعلان المبادئ بتعابير وبأسلوب يحتمل التأويل لأنه يصعب الاتفاق على ما سمي في أوسلو بقضايا الحل الدائم. فماذا يبقى من أمور يمكن تقديمها كدعم للمعتدلين؟ بعد أخذ ورد واستنزاف آخر ذرة مما تبقى سوف تنسحب إسرائيل تدريجيا إلى خطوط ما قبل الانتفاضة الثانية، أي إعادة بسط السلطة نفوذها على مناطق أ و ب في الضفة الغربية، ثم مبادرات حسن نية أو "مكرمات" إسرائيلية أخرى ربما تصل حد أمور رمزية الطابع. وتأمل إسرائيل أن تتوسع أوساط المستفيدين من حسن أخلاق الدولة المحتلة هذا. وهي الدولة التي يعتبر إذنها بدخول فلسطيني ليس إلى مناطق الخط الأخضر بل إلى الضفة الغربية بادرة حسن نية، ويتم تناسي أن هذا الواقع، أي واقع طلب الإذن منها يعني عدم سيادة السلطة حتى على المناطق التي تديرها في الضفة الغربية، وتأكيد سيادة الاحتلال. ولا يفترض أن يكون لأحد مانع أن يطلب لمواطن فلسطيني مشرد وعالق على الحدود العراقية العودة إلى الضفة أو دخولها، (فماذا تعني كلمة العودة هنا؟!) ولكن المشكلة هي في تفسير ذلك سياسياً كتنازل إسرائيلي وكمكرمة تساعد "المعتدلين"،وهو في الواقع ممارسة إسرائيل لصلاحيتها كدولة احتلال.هنا يتم ليس فقط فرط القضية الفلسطينية إلى مطالب عينية تقدم إلى دولة الاحتلال بل تتم مقايضة هذه المطالب وما يترتب عليها من تعزيز مكانة من يحصلها من القيادة الفلسطينية كأنه "نائب خدمات" في برلمان دولة، ويقوم هو بوساطة بين جمهوره والدولة، ومقايضة هذا كله مقابل تفكيك المشروع الوطني إلى مطالب واقعية من دولة الاحتلال، وتنافس أمام الشعب الفلسطيني ما الذي يفيد في تقديم الخدمات الاعتدال أي تقديم المشروع الوطني مقابلها أم تحصيلها من خلال النضال لتطبيق المشروع الوطني؟